



كلمات روحية للحياة

الجزء الرابع

القمص لوقا سيداروس

~~~~~

#### مهمة رئيس الملائكة ميخائيل

قيل فى سفر التثنية إن الرب دفن موسى فى الجواء (الوادى) بعد أن أراه أرض الموعد من بعيد ولم يعرف أحد قبر موسى إلى هذا اليوم (تث ٣٤ : ٦).. فقد أخفى الله جسد موسى بحسب تدبيره الخاص.

ولكن ذكر القديس يهوذا الرسول فى رسالته أن رئيس جند الرب ميخائيل «خَاصَمَ إِبْلِيسَ مُحَاجًا عَنْ جَسَدِ مُوسَى، لَمْ يَجْسُرْ أَنْ يُورِدَ حُكْمَ افْتِرَاءٍ، بَلْ قَالَ لِيَتَنَهَرَكَ الرَّبُّ».

وواضح من ذلك أن الشيطان أراد أن يعمل ضلالة عظيمة ضد تدبير الله لأنه هو مقاوم وعدو كل خير. أراد أن يُظهر جسد موسى ويحوّل قلب شعب إسرائيل عن عبادة الله، وطاعته، ليتعلقوا بجسد موسى كنوع من عبادة البشر، إذ كان موسى عندهم هو كل رجائهم.

فلما ظهرت نية إبليس محاولاً أن يخرج جسد موسى من مكان دفنه المخفى عن عيون البشر، أوعز الله إلى ميخائيل رئيس جند الرب أن يوقف الشيطان ويتصدى له. ولما كان إبليس رئيس سلطان الهواء، الروح الذى يعمل فى أبناء المعصية - هو قوة هائلة وروح ظلمة مريع - وله قدرات فائقة إذ كان رئيساً للملائكة وأوصافه التى وصفها به الأنبياء تُنبئ عن ذلك، إذ يقول عنه إشعياء: «كَيْفَ سَقَطْتَ مِنَ السَّمَاءِ يَا زُهْرَةٌ، بِنْتِ الصُّبْحِ؟» (١٤ : ١٢). وقال عنه حزقيال: «أَنْتِ خَاتِمُ الْكَمَالِ، مَلَأَنْ حِكْمَةً وَكَامِلُ الْجَمَالِ... أَنْتِ الْكُرُوبُ الْمُنْبَسِطُ الْمُظَلَّلُ، وَأَقَمْتُكَ. عَلَى جَبَلِ اللَّهِ الْمُقَدَّسِ كُنْتِ. بَيْنَ حِجَارَةِ النَّارِ تَمْشِيَتِ. أَنْتِ كَامِلٌ فِي طُرُقِكَ مِنْ يَوْمِ خُلِقْتِ حَتَّى وُجِدَ فِيكَ إِثْمٌ» (٢٨ : ١٢، ١٤، ١٥).

على هذا كانت مهمة رئيس الملائكة ميخائيل فى التصدى لإبليس مهمة غاية فى الصعوبة، توصف بأنها حرب فى السماء.

ميخائيل كاسمه "من مثل الله" يستمد قوته من خضوعه لله. بينما إبليس أو الشيطان هو كروح ظلمة مضاد لطبيعة الله الذى هو النور والساكن فى النور الذى لا يُدنى منه.

+ «بَارِكُوا الرَّبَّ يَا جَمِيعَ مَلَائِكَتِهِ الْمُقْتَدِرِينَ قُوَّةً، الْفَاعِلِينَ أَمْرَهُ ، الْعَامِلِينَ مَرْضَاتَهُ» (مز ١٠٣ : ٢٠ ، ٢١).

+ «الصَّانِعُ مَلَائِكَتَهُ رِيَاحًا وَخُدَامَهُ لِهَيْبِ نَارٍ» (عب ١ : ٧).

لذلك فإننا ندرك أن ميخائيل تصدى لقوة الظلمة الهائلة، أى لإبليس وجنوده ليوقف عمله ويبطل مشورته. وهذا ما عبّر عنه سفر الرؤيا بقوله: «حَدَّثْتُ حَرْبٌ فِي السَّمَاءِ: مِيخَائِيلُ وَمَلَائِكَتُهُ حَارَبُوا النَّبِيِّينَ، وَحَارَبَ النَّبِيُّ وَمَلَائِكَتُهُ» (رؤ ١٢ : ٧).

وقد كانت مهمة رئيس الملائكة ميخائيل هكذا مهمة خطيرة وصعبة جداً. ولم يستطع إبليس أن ينفذ إرادته الشريرة، بل توقف عن تقدمه بسبب قوة ميخائيل وتصديه الحاسم. ويمكننا أن نتخيل هذه المواجهة الصعبة عندما نتذكر أن ملاكاً واحداً قتل «مِئَةَ أَلْفٍ وَخَمْسَةَ وَثَمَانِينَ أَلْفًا مِنْ جَيْشِ سَنَحَارِيْبُ» (٢مل ١٩ : ٣٥) المحاصر لأورشليم في أيام حزقيا الملك.

فما بالك برئيس الملائكة !!؟

وقول رئيس الملائكة ميخائيل وصرخته في الشيطان «لِيَنْتَهَرْكَ الرَّبُّ» فيه لنا قدوة وسر به كيف نواجه هذا العدو، إذ نلتجئ إلى اسم الرب.. ولاسيما بعد أن نلنا نعمة البنوة وأخذنا من المسيح الإله قوة وسلطاناً على الأرواح النجسة، حتى طردها وإخراجها وغلبتها بقوة الروح القدس المعطى لنا، لأن الرب قال: «أَنَا بِرُوحِ اللَّهِ أُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ» (مت ١٢ : ٢٨) وقال الرسول يعقوب: «قَاوِمُوا إِبْلِيسَ فَيَهْرُبَ مِنْكُمْ» (يع ٤ : ٧) وقال الرسول بطرس أيضاً: «قَاوِمُوهُ، رَاسِخِينَ فِي الْإِيمَانِ» (١بط ٥ : ٩). وقال الرب أيضاً: «هَا أَنَا أُعْطِيكُمْ سُلْطَانًا لِنُدْوسُوا الْحَيَاتِ وَالْعَقَارِبَ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدُوِّ» (لو ١٠ : ١٩).

فليكن في فمنا قول رئيس الملائكة «لِيَنْتَهَرْكَ الرَّبُّ». نقوله الليل والنهار في كل ما يقابلنا من حروب أو معاكسات أو فخاخ أو مضايقات أو هجمات العدو. وكان عوام (عامة) المؤمنين يقولون: "ربنا يخزيك يا شيطان". وكانوا يؤمنون إنه بمجرد رسم علامة الصليب يهرب الشيطان ويصيبه الخزي، لأن الرب يسوع سحق الشيطان بالصليب.

ثم بعد ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة لما تجسد ابن الله وظهر في الهيئة كإنسان من أجل خلاص العالم. وُصِّلَ على الصليب حاملاً خطية العالم كله. وأسلم الروح في يدي الأب. طار صواب عدو الخير لما اكتشف أن الذي وُلِدَ في مذود وصار في الهيئة كإنسان وصار مُجْرِباً في كل شيء وتعب

وبكى ونام.. إلى آخر هذه الأمور، واحتمل الآلام ومات.. لم يكن سوى الأَقنوم الكلمة الذى فى ذات الله والواحد مع أبيه فى الربوبية.

وعندما نزل بلاهوته المتحد بالنفس البشرية إلى الجحيم وسبى سببياً وخلص آدم وبنيه من سجن الأرواح أى قبضة إبليس. أسرع إبليس فى جنونه الشيطانى ليعمل ضلالتة العظمى إذ أدرك أن المسيح لا يمكن أن يُمسكه الموت بل هو سيقوم حتماً كما قال لأنه هو هو القيامة والحياة. فراح يعمل فى فكر رؤساء كهنة اليهود لكى بكل وسيلة يخفى القيامة فأسرعوا إلى بيلاطس لكى يضبطوا قبر المخلص بأختام وعساكر. وقالوا عن الرب: «أَنَّ ذَلِكَ الْمُضِلَّ قَالَ وَهُوَ حَيٌّ: إِنِّي بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَقُومُ... لِئَلَّا يَأْتِيَ تَلَامِيذُهُ لَيْلًا وَيَسْرِقُوهُ، وَيَقُولُوا لِلشَّعْبِ: إِنَّهُ قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ، فَتَكُونَ الضَّلَالَةُ الْأَخِيرَةُ أَشْرَّ مِنَ الْأُولَى» (مت ٢٧ : ٦٣ ، ٦٤).

فتصور أن الشيطان المضل والكذاب وأبو الكذاب يقول عن الرب إنه مضل وأن قيامته ضلالة.. وإنى أتعجب لشر الشرير وظلمة الظالم. فذاك الذى أسقطه كبرياؤه ليصير مثل العلى.. أحدثته أفكاره إلى أسفل السافلين.

فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة الذين انقادوا لمشورة الشيطان "عندكم جنود فاضبطوا القبر كما تعلمون". كانت هذه المحاولة اليائسة والمشورة الغبية هى آخر حصون العدو التى هدمها المسيح بقيامته. لأنه عندما أشرق نور قيامة المسيح هربت قوات الظلمة وتبددت فى الحال. لأنه هل ممكن أن يحجز الظلام نور شمس البر؟ وهل ممكن للذى وُلد من العذراء بدون زرع بشر، الذى لم يفعل خطية، القدوس الذى بلا شر، أن تسود عليه شوكة الموت؟ وهل يُعقل أن الأزلَى الأبدى تكون له نهاية أيام؟

لذلك قام المسيح من الأموات ونقض أوجاع الموت، وكسر شوكتة وأنار الحياة والخلود. فى هذه المرة أيضاً أوعز الرب لرئيس جنده الملاك ميخائيل أن ينزل، ولكن لم تكن هذه المرة كسابقتها.. فإبليس انسحق سحقاً بقيامته المسيح الإله، وشوكة الموت والظلام انكسرت إلى الأبد. وقوة المعاند تحطمت، والقيود التى كان يقيد بها النفوس ويستعبدتها رجعت عليه فصار هو مقيداً ومذلولاً. بل إله السلام وملك السلام أعطى عبده سلطاناً على إبليس وأن يدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو.

فنزل ميخائيل بقوة لا ليواجه شيطاناً مقهوراً وقوات ظلمة فزعة فأره (هاربة)، بل ليعلن قيامة المسيح، فلما رآه الجنود وهزتهم الزلزلة صاروا كأموات وهربوا من الخوف، لذلك دحرج الحجر عن باب القبر الفارغ وجلس عليه.

وهنا العجب أن الملائكة وهم أرواح فائقة غير متجسدة.. لا يتعبون ولا يجلسون. ولكن من فرط فرح القيامة جلس ميخائيل على الحجر وبشر النسوة حاملات الطيب قائلاً: المسيح قام.  
**معونة الملائكة وشفاعتهم:**

بسبب طبيعتهم الخيرة - المخلوقين عليها - فإنهم يحبون الخير ويخدمونه ويتمنونه. وعلى العكس فهم ضد الظلام والشر والخراب الذى تصنعه أرواح الظلمة فى العالم. انظر إلى الملاك الذى شفّع فى أورشليم فى أيام زكريا النبى كيف قال للرب: «إلى متى أنت لا ترحم أورشليم ومُدن يهودا التى غَضِبْتَ عَلَيْهَا هَذِهِ السَّبْعِينَ سَنَةً؟». فأجابه الرب بكلام طيب وكلام تعزية.  
والأمر المؤكد أنه لم تكن هذه هى المرة الأولى التى وقف فيها الملاك يطلب ويستعطف الله ويطلب الخير لأورشليم. إذ أن الملائكة موجودون فى حضرة الله كل حين يباركونه ويسبحونه، من أجل خيراته ومن أجل أعماله المملوءة صلاحاً. فهم بالحقيقة شفعاء طالبون الخير وكل ما هو مرضى أمام الله.

«إِنَّ السَّيِّدَ الرَّبَّ لَا يَصْنَعُ أَمْرًا إِلَّا وَهُوَ يُعْلِنُ سِرَّهُ لِعَبِيدِهِ الْأَنْبِيَاءِ» (عاموس ٣ : ٧). أى أن أسرار الله وتدابير نعمته يعلنها لقديسيه. ألم يقل فى سفر التكوين: هل أخفى عن عبدى إبراهيم ما أنا صانع؟ لذلك ليس كثيراً أن يصير القديسون شفعاء أمامه.



## المعطي فبسخاء

الحياة المسيحية بحسب الإنجيل هي حياة عطاء وبذل من كل جانب، لأنها هي حياة المسيح فينا الذى بذل نفسه حتى الموت حباً فينا.

فإن كان المسيح يحيا في فحياتى كلها عطاء وكلها سخاء، بعيداً عن البخل والشح والأنانية وتفضيل الذات على الآخرين.

والعطاء المادى هو أقل أنواع العطاء، لأن الممتلكات أشياء تفنى، لها قيمة مادية متغيرة وهي خارجة عن الذات. فأنا شئ وما أملكه شئ آخر يبقى منفصلاً عنى. أما العطاء المسيحى فهو عطاء النفس، أن يضع أحد نفسه عن أحبائه على مثال صليب المسيح الذى أحبنا إلى المنتهى.

فإن وضع الإنسان نفسه، وفرط فيها وكفر بذاته وسعى وراء مخلصه حاملاً الصليب، فإنه يعيش متنعماً فى ملكوت المسيح وهو بعد فى الجسد «هَا مَلَكُوتُ اللَّهِ دَاخِلُكُمْ» (لو ١٧ : ٢١). وإن وُجد هذا المثال المسيحى حياً.. فلا مكان للصراعات ولا الخلافات ولا التحزبات ولا السياسات فى الكنيسة.. ولا مكان للمشاكل فى العائلة ولا انحراف ولا طغيان للمادة والطمع.. إلى آخر هذه الأمور.

العطاء الحقيقى هو حالة فيض داخلى، فحينما يمتلئ القلب يفيض. فالقلب الممتلئ حباً يفيض حباً.. الامتلاء يسبق الفيض.. الفيض بدون ملء هو نوع من الغش. فالعطاء الحقيقى يكون من ملء الروح وفيض الروح. فإن لم نحيا بالروح يكون عطاؤنا المادى بلا قيمة.

الكنيسة منذ البداية رفضت عطايا الناس غير المتقدين، فلا تقبل عطايا من يتاجر فى النجاسة، أو يكسب أمواله عن طريق غير مقدس.

هذه بعض الآيات الإنجيلية التى تنير الطريق وتوضح الأهداف الحقيقية:

+ «أَعْطُوا تُعْطُوا» (لو ٦ : ٣٨).

+ «مَغْبُوطٌ هُوَ الْعَطَاءُ أَكْثَرُ مِنَ الْأَخْذِ» (أع ٢٠ : ٣٥).

+ «الْمُعْطِي فَبِسَخَاءٍ» (رو ١٢ : ٨).

+ «مَنْ يَزْرَعُ بِالْبَرَكَاتِ فَبِالْبَرَكَاتِ أَيْضًا يَحْصُدُ» (٢كو ٩ : ٦).

+ «لَيْسَ أَنِّي أَطْلُبُ الْعَطِيَّةَ، بَلْ أَطْلُبُ الشَّمْرَ الْمُتَكَثِّرَ لِجِسَابِكُمْ» (فى ٤ : ١٧).

+ «فِي اخْتِبَارِ ضَيْقَةٍ شَدِيدَةٍ فَاصٌّ وَفُورٌ فَرِحَهُمْ وَفَقَّرَهُمِ الْعَمِيقِ لِعَنَى سَخَائِهِمْ» (٢كو ٨ : ٢).

+ «لَأَنْتُمْ أَعْطَوْنَا حَسَبَ الطَّاقَةِ، أَنَا أَشْهَدُ، وَفَوْقَ الطَّاقَةِ، مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، مُلْتَمِسِينَ مِنَّا، بِطَلْبَةٍ كَثِيرَةٍ،

أَنْ نَقْبَلَ النِّعْمَةَ وَشَرِكَةَ الخِدْمَةِ الَّتِي لِلْقَدِيسِينَ» (٢كو ٨ : ٣ ، ٤).

+ «وَلَيْسَ كَمَا رَجَوْنَا، بَلْ أَعْطَوْا أَنْفُسَهُمْ أَوَّلًا لِلرَّبِّ، وَلَنَا، بِمَشِيئَةِ اللَّهِ» (٢كو ٨ : ٥).

ويبدو واضحاً أن الرسل الأَطْهَار الذين جرّدهم الرب منذ البداية من كل ما هو مادي، وملاهم من الروح إلى كل الملاء لم يطلبوا شيئاً.. بل لم يشتهوا شيئاً «فِضَّةً أَوْ ذَهَبَ أَوْ لِبَاسَ أَحَدٍ لَمْ أَشْتَهُ» (أع ٢٠ : ٣٣). ولكن بحركة عطاء تلقائية، منذ أن حل الروح القدس وملاً كيان الكنيسة، كان «كُلُّ الَّذِينَ كَانُوا أَصْحَابَ حُقُولٍ أَوْ بُيُوتٍ كَانُوا يَبِيعُونَهَا، وَيَأْتُونَ بِأَثْمَانِ الْمَبِيعَاتِ، وَيَصْعُقُونَهَا عِنْدَ أَرْجُلِ الرَّسْلِ» (أع ٤ : ٣٤ ، ٣٥). دون أن يطلب الرسل ذلك.

كان هذا شعوراً تلقائياً للتخلي عن الماديات، لما حصلوا على ملء الروح. والآيات توضح المنهج الروحي من ناحية الرسل ومن ناحية المؤمنين. فالمؤمنون كانوا يتوسلون إلى الرسل أن يقبلوا العطايا، والرسل الأَطْهَار لم يمدوا أيديهم للأخذ فوضعت العطايا تحت أقدامهم، كانوا «يَصْعُقُونَهَا عِنْدَ أَرْجُلِ الرَّسْلِ».

«أَعْطُوا تُعْطُوا»

يقول القديس يوحنا ذهبي الفم "إننا كثيراً ما نتبادل المواقع.. ففي أوقات كثيرة يأتي إلينا من يسألنا حاجة، ونكون نحن في مكان الذي يُعْطَى ويُحْسَنُ إلى من يسأله، ثم في أحيان أخرى نمد أيدينا نسأل ونطلب.. ونكون في موضع المُسْتَجِدِّ المحتاج".

فإن تصرف الإنسان في موقعه الأول تصرف السخي المُعْطَى، الذي لا يرد حاجة السائل. فإنه حين يكون في وضع المحتاج من الله سيعامله بذات السخاء وبالكيل المُلبَّد المهزوز يعطيه في حضنه. والعكس صحيح فإن بخل الإنسان وصدّ من يطلب إليه، فإنه حين يطلب هو تُصدُّ صلاته ولا يُستجاب لطلبه.

هذا ما عاشه القديسون في كل جيل، لقد عرفوا الطريق إلى استجابة صلواتهم، وعرفوا كيف يستندرون مراحم الله، إذ صاروا رحماء و«أَسْخِيَاءَ فِي الْعَطَاءِ، كُرَمَاءَ فِي التَّوْزِيْعِ» (١تى ٦ : ١٨).

- يُحْكِي عن المعلم إبراهيم الجوهري الذي كان بمثابة رئيس للوزراء.. أنه كان منقطع النظر في سخائه، ويُذْكَر عنه أن شحاذاً قابله وهو خارج من منزله في الصباح ذاهب إلى ديوان الوزارة، وطلب منه شيئاً (صدقة) فأعطاه، ثم استدار الشحاذ وقابله في منعطف الشارع وطلب منه فأعطاه، ثم لف من شارع آخر وقابله وطلب فأعطاه.. حتى في نهاية المشوار صرخ الشحاذ وقال: طوباك يا رجل الله، فهذا طلبت منك هذه المرات الكثيرة ولم تضجر مني ولا أرجعتني خائباً. فأجابه المعلم إبراهيم في اتضاع كثير: هذا مالك يا ابني، أعطاه الله لي لأعطيه لمن يسأل.

+ وقد تقابلت في حياتي مع كثيرين من الأسخياء المُحبين للعطاء بسرور. والحريصون منهم كانوا يحيون حياة العطاء بحسب الإنجيل وبحسب الذي تسلموه من الأبرار الذين أرضوا الرب قبلهم. لأن كثيراً من المزالق تحيط بحياة العطاء، «مَنْ يَرْحَمُ (يعطى) الْفَقِيرَ يُفْرِضُ الرَّبَّ، وَعَنْ مَعْرُوفِهِ يُجَازِيهِ» (أم ١٨ : ١٧). والمزمور يقول: «طُوبَى لِلَّذِي يَنْظُرُ إِلَى الْمَسْكِينِ (لمن يتعطف على المسكين والفقير). فِي يَوْمِ الشَّرِّ (السوء) يُنَجِّهِ الرَّبُّ» (مز ٤٠ أجبية). ولكن بالأكثر يقول: «صَالِحٌ هُوَ الرَّجُلُ الَّذِي يَتَرَأَفُ وَيُقْرِضُ... مَجْدٌ وَغِنَى فِي بَيْتِهِ، وَبِرٌّ يَدُومُ إِلَى الْأَبَدِ» (مز ١١١ أجبية).

فالعطاء في المسيح هو من فيض النعمة وحياة البر، وليس كما يظن البعض أنه مجرد عطاء مادي ومساعدات تُقدّم.. يجب أن الذي يقدم العطايا يقدمها بيد طاهرة، بقلب عابد للمسيح. وليست الصدقة بغرض التكفير عن ذنوب، فالحسنات لا يُذهبن السيئات لأن هذا مبدأ غير مسيحي، السيئات يمحوها دم المسيح الذي يُطهّر من كل خطية.. والاعتراف بها وغفرانها من فم المسيح بيد الكاهن وتكميل التوبة يكون في الحياة البعيدة عن السيرة الأولى.

ناهيك لما يشوب العطايا ويلوثها من حب التفاخر والتظاهر ومدح الناس. وهذا ضد الوصية الغالية.. «مَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً (رحمة) فَلَا تُعْرِفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ» (مت ٦ : ٣). لذلك أقول إن من بين الأتقياء الذين عايشتهم من كان كثير العطاء في الخفاء، يسلك سلوك القديسين الذين أنكروا ذواتهم رغم أنهم صنعوا آيات وعجائب.

+ على أن وصية العطاء غير قاصرة على ذوى الأملك والمقتدرين، فقد رأينا فقراء ومُعَدِّمين مُحَبِّين للعطاء ويقدمون للرب، فوق طاقتهم بفرح لا يُعبّر عنه. فبعض المساكين كانوا يأخذون بركة صغيرة من الكنيسة وكانوا يتصدقون منها ويُشاركون من هم أفقر منهم وأكثر احتياجاً. كيف يكون الفقير والمعدم كريماً سخياً محباً للعطاء؟.. هذه هي نعمة المسيح التي أجزلها بكل حكمة وفطنة حتى صار أولاده كفقراء وهم يغنون كثيرين.

+ «فَإِنَّكُمْ تَعْرِفُونَ نِعْمَةَ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ، أَنَّهُ مِنْ أَجْلِكُمْ أَفْتَقَرَ وَهُوَ غَنِيٌّ، لِكَيْ تَسْتَعْنُوا أَنْتُمْ بِفَقْرِهِ» (٢كو ٨ : ٩).. فقر المسيح هو الغنى الذي لا يُستقصى.. فكلما زاد الإنسان التصاقاً بالمسيح، وقبل آلامه المُخْلِصَةِ المُحِبِّية ليحيا بها وفيها، كلما زاد غنى الإنسان وفاضت ينباعه من فيض نعمة المسيح مخلصنا. «أَمَا اخْتَارَ اللَّهُ فُقَرَاءَ هَذَا الْعَالَمِ» (يع ٢ : ٥) ليخزي بهم الأغنياء.

قيل في البستان عن أحد الآباء النِسَاكِ العظام، إنه حل في زمانه غلاء عظيم وقلَّ الخير. وكان في قلايته ثلاث خبزات. وبعد غروب الشمس، شرع في تناول طعامه، فقرع بابه سائل فقام وأعطاه

خبزة. وقبل أن يأكل قرع بابه آخر فقام وأعطاه الخبزة الثانية. وجلس ليكسر الخبزة الباقية ففرع بابه سائل آخر. فيقول البستان أنه ساورته أفكاره عما إذا أعطى آخر خبزة له فما عساه أن يفعل؟ وماذا يكون مصيره؟ ولكنه غلب أفكاره وقفز بشجاعة إيمانية وأعطى الخبزة للسائل. وظل هو بلا طعام، وقد استمر على هذه الحال يومين وهو صائم شاكراً لله. وبعد هذا ظهر له ملاك الرب وعزّاه وقال له: من أجل عملك هذا فقد أحسن الرب إلى المنطقة كلها وأزال الغلاء. وفي ذات اليوم جاءت إلى الدير جمال مُحمّلة بالخيرات.

+ هناك حروب كثيرة من عدو الخير ضد عمل الخير والصدقات وعمل الرحمة والإحسان. ولكن الذين عاشوا بالإيمان غلبوه بقوة الله ومؤازرة النعمة. ويكفى أن نذكر فلسى الأرملة التي مدحها الرب ذاته أنها أعطت «كُلَّ مَا عِنْدَهَا، كُلَّ مَعِيشَتِهَا» (مر ١٢ : ٤٤)، أما الأغنياء فقال الرب: إنهم «مِنْ فَضْلَتِهِمْ أَلْفُوا (أعطوا)».

هذا اختبار عميق يعرفه الذين مارسوه وتتعلموا به، إنه اختبار إيماني عاشه المُعدمون بحسب الظاهر، فاختبروا قمة عناية الله بهم. لقد عاش القديس أنبا انطونيوس هذا الاختبار مدى الحياة لما تنازل طوعاً عن كل ملكيته، وألقى رجاءه بالكمال على الله، الذي اعتنى به حتى آخر أيامه على الأرض. وهكذا القديس أنبا بولا لما تنازل عن الإرث المادى الغالى وعاش ناسكاً بلا مأوى ولا كسوة ولا قوت.. كيف عاله الله سبعين سنة.. أليس هو الذى عال الشعب الإسرائيلى (٢ مليون نسمة) فى البرية أربعين سنة، «لَمْ تَبَلْ ثِيَابُهُمْ، وَلَمْ تَتَوَرَّمْ أَرْجُلُهُمْ» (نحميا ٩ : ٢١) ونعالهم لم تنتهراً؟





## شفاعة السيدة العذراء والقديسين

سألنى أحدهم كيف نطلب شفاعة العذراء من أجل غفران الخطايا؟ إن الغفران فقط بدم يسوع، لأن دم يسوع يطهر من كل خطية، وأنه ليس لنا شفيع عند الأب إلا يسوع الذى هو كفارة لخطايانا، وليس خطايانا فقط بل خطايا كل العالم. وأنه ليس بأحد غيره الخلاص.

قلت لصديقى هذا.. كل ما تقوله حق.. ولكن دعنى أراجع معك واقعة مشوقة جداً دَوَّنَهَا الوحي الإلهي فى أيام داود النبي الملك فى الأصحاح ١٤ فى سفر صموئيل الثانى. وما حدث عندما قتل أبشالوم ابن داود أمنون أخاه انتقاماً لما فعله مع أخته من قباحة. وبعد ما قتل أبشالوم أمنون هرب من وجه داود، وهرب من الناموس الذى كان يحكم بأن القاتل يُقتل. وظل أبشالوم هارباً إلى أن جاء يوباب بامرأة حكيمة من تقوع، ولبست ثياب الترمل وجاءت إلى الملك داود كمن لها شكوى، وهى تصرخ من الظلم وتتوجع وتقول: "أَعِنِ أَيْهَا الْمَلِكُ". فلما استفسر داود منها حكى له وضعاً مؤلماً.. إذ أنها أرملة، مات زوجها ولها ولدان، تشاجرا فى الحقل وقام أحدهما وقتل الآخر. وها كل العشيرة حولها تطلب أن تنفذ الناموس وهو قتل القاتل. فقالت المرأة.. إنها والحال كذلك ستعدم كلا الاثنين. فهى أرملة مسكينة وما الفائدة من تنفيذ الناموس فى هذه الحالة.. إنها تريد رحمة.

فقال لها الملك.. اذهبي وأنا سأدرس الأمر. فقالت.. لا. وتوسلت إليه. فقال.. سأوصى بك. فأصرت وصارت تستعطف. إلى أن قال لها الملك، وهو صاحب الأمر، لن يموت ابنك. فقد جعلت المرأة القضية بين يدي الملك وبالتوسل والاستعطاف استخلصت للقاتل حكم براءة، وكلمة من فم الملك أن الولد لن يموت.

قلت لصديقى هذا.. ما رأيك؟! نعم الناموس حق وأحكامه حق وواجبة النفاذ. ولكن ما رأيك فى واضع الناموس هو صاحب الحق كل الحق فى كل أحكامه. فإن كانت هذه المرأة استطاعت بالتوسل والاستعطاف أن تصنع هذه الشفاعة فكم بالحرى أننا العذراء..

هى تقف أمام الملك الديان لتشفع فى الخطاة وتستعطف قلبه نحو بنيتها.. هى أم القاضى والملك الديان.. وهى أم الخاطيء المُدان.

وبكل تأكيد كثيرة هى شفاعتها قوية ومقبولة لدى مخلصنا.. هى تقف كأم حنون قلبها نحو كل ضعيف. وهل تؤثر خطايا الأولاد وإخفاقاتهم على عاطفة الأمومة؟! وهل يعقل أن الأم تبغض أبناءها بسبب جودهم أو أخطائهم؟ وهل تنسى الأم رضيعها؟!

إن طبيعة الأم الجسدية وحبها وعاطفتها فى صميم الخليقة شئ مهول، لا يمكن التعبير عنه. فكم بالحرى التى صارت أم المسيح، أم الرحمة المتجسدة. من يقدر أن يصف عاطفتها وحبها نحو أولادها الخطاة أو المرضى أو المتغربين عن المسيح؟!  
شفاة القديسين:

أما من جهة أن القديسين يشفعون ويقفون أمام الله من أجل الشعب. فهذا أمر يخصنا بالدرجة الأولى إذ نشعر أننا فعلاً فى حاجة شديدة لمثل هذا الأمر. ألم يقف إبراهيم أمام الله يطلب من أجل أشر الناس فى جيله. وقال وقفت أمام المولى وأنا تراب. واستعطف الرب من أجل سدوم.. وهل يوجد أعظم من هذا؟! بل وزاد على ذلك أنه تجراً بحسب الدالة التى له مع القدير إذ دُعى خليل الله، أن يطلب أن يرحم الرب سدوم بسبب وجود قديسين وأبرار بها. فقال: لا تهلك البار مع الأثيم. وكان إبراهيم يفكر بحسب قلبه الطيب أنه لا يمكن أن تخلو مدينة بأكملها مثل سدوم على الأقل من خمسين باراً. ولكن كشف له القدير أنه لو وُجد خمسون باراً لا يُهلك المدينة. وظل إبراهيم يستعطف ويطلب ويتواضع أمام الله إلى آخر مرة حتى قال إبراهيم: اسمعنى هذه المرة فقط ألا يوجد عشرة أبرار. وإذ كان الجواب من الله بالنفى، صمت إبراهيم عن شفاعته فى سدوم. ونالت ما نالت من عقاب استوجبه خطايا الشذوذ والنجاسات.

ولذلك نقول إن حاجتنا إلى شفاة القديسين شديدة وملحة للغاية. فقد استخلص أبو الآباء بفعله هذا، أن وجود الأبرار فى مدينة ينقذها من مكابدة العقاب والغضب. وهكذا يكون فى البيت والمدرسة والمصنع والجامعة والكنيسة والمدينة والقرية. إن خلت من الأبرار أدركها الفناء.

+ وهذا هو موسى الذى حمل شعبه على عنقه بحلمه وصبره وطول أناته التى وصفها الكتاب، أن الرجل موسى كان حليماً جداً أكثر من جميع الرجال الذين على وجه الأرض. لما اشتد غضب الرب على الشعب العاصى الجاحد للنعمة، والراجع بقلبه إلى مصر مرتداً عن الذى فداه. وقف موسى أمام الله من أجل هذا الشعب الصُّلب الرقبة وقال الرب لموسى: دعنى أفنيهم وأجعلك لأمة أعظم. فتشفع موسى فى الشعب وحجب الغضب الإلهى. وبما له من دالة تكلم مع الله. قال للرب إن تفعل هذا امح اسمى من كتابك الذى كتبت. وأرجع الرب عن حمو غضبه.  
ما أحوجنا نحن الخطاة إلى من يقف لأجلنا أمام الله.

+ قال الرب لأرميا النبي: لا تطلب من أجل هذا الشعب. ولا ترفع صلاة لأجلهم. وقال «وَأِنْ وَقَفَ مُوسَى وَصَمُؤِيلُ أَمَامِي لَا تَكُونُ نَفْسِي نَحْوَ هَذَا الشَّعْبِ». أ رأيت هذا الاقتدار لطلبات الأبرار. ألم يقل يعقوب الرسول إن طلبه البار تقتدر كثيراً في فعلها.

+ إننا لا ننسى أن الآية الأولى التي صنعها ربنا يسوع في عرس قانا الجليل كانت بتوسلات وشفاعة أمنا العذراء القديسة. فهي كما يبدو من المكتوب أنها رأت أهل العرس وقد صاروا في ورطة بسبب نفاذ الخمر، ربما لكثرة المدعوين أو رقة حالهم كفقراء، وقد يتعكر صفو الجميع وينقلب الفرح إلى غم، ويُلام منهم من يُلام ويقع في الإحراج ذات العريس وعائلته.. وقد يترتب على ذلك ما لا تُحمد عقباه. رأت الأم كل ذلك وبروحها النقية أدركت الأمر قبل أن يدركه أحد، وبحنانها الفائق تقدمت دون أن يسألها أحد، إذ هي الأم للعريس الحقيقي مصدر الفرح. ذهبت إليه وقالت ليس لهم خمر. ثلاث كلمات لا غير.. فهي في الإنجيل كله صاحبة الكلمات القليلة، ولكنها صاحبة الدالة التي تفوق دالة الملائكة والأنبياء ورؤساء الآباء. طرحت طلبتها وسؤالها من أجل الذين ليس لهم أمام ابنها، الذي له الكل في الكل. ابنها افتقر وهو الغنى بل هو الغنى ذاته. ولا أحد يعرف سر إخلائه إلا هي. لذلك اتجهت إليه ليخلص الذين كانوا في ورطة العوز والفقير. فهي كانت ومازالت تشفع في المعوزين والمعدومين. فإن قالت ليس لهم خمر، فهي قائمة دائماً ما زالت تطلب إليه من جهة كل من ليس لهم. فما أناس منا ليس لهم حب، بل افتقروا جداً في الجحود والعداء. وآخرون ليس لهم فرح بل لهم النكد والحزن. وآخرون ليس لهم قداسة بل طُرحوا أسرى الخطايا. وافتقروا جداً. وغيرهم ليس لهم اتضاع بل عدموه بحياة الاعتداد بالذات وفقر الكبرياء. وغيرهم ليس لهم سلام. وما أكثر من صاروا ليس لهم، وأعوّزهم مجد الرب.

وها هي واقفة أمام ابنها تطلب فتُجاب وتُسأل ولا يرد طلبتها. ورغم أن استعلان صليبه لم يكن قد حان بعد بحسب كلامه لها، إلا أنه صنع الآية وأظهر مجده. ويا للعجب.. قد كان من الممكن أن يعطيهم ما يكفي، وما نقص عنهم. ولكن قال: امألوا الأجران.. فملؤها إلى ما فوق.. إلى أقصى اتساعها بدون نقص، ٣٦ صفيحة ماء.. ما هذا الفيض!؟

ألا نذكر ما قاله فيلبس من جهة الخمسة آلاف، إنه لا يكفيهم بمئتي دينار خبز لكي يأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً. غنى المسيح الذي لا يُستقصى يتعارض تماماً مع الشح والقلّة فهو حين يُعطى بسخائه الإلهي. «فَأَكَلُوا وَشَبِعُوا جَمِيعًا. ثُمَّ رَفَعَ مَا فَضَلَ عَنْهُمْ مِنَ الْكَبْسِ اثْنَتَا عَشْرَةَ قُفَّةً» (لو ٩ :

١٧). لذلك فاض سخاؤه الإلهي للارتواء والشبع وسد الإعواز للغنى والفيض. وبالطبع الأمر الجوهري لا يخص الخيرات الزمنية ولكن غنى المسيح أبدى يختص بالدرجة الأولى الحياة الأبدية.

+ ألم يُصلِّ أيوب لأجل أصحابه لكي يرفع الرب عنهم غضبه. لأن الرب قال: «قَدْ اخْتَمَى غَضَبِي عَلَيْكَ وَعَلَى كِلَا صَاحِبَيْكَ، لِأَنَّكُمْ لَمْ تَقُولُوا فِي الصَّوَابِ كَعَبْدِي أَيُّوبَ» (أي ٤٢ : ٧). فهم إن كانوا يظنون أنهم يدافعون عن الله وأحكامه وعدله، لكنهم لم ينالوا الرضى لأن حياتهم لم تكن على مستوى التقوى والعشرة الحقيقية، بل كلام فى كلام. فأمرهم أن يأخذوا «سَبْعَةَ ثِيرَانٍ وَسَبْعَةَ كِبَاشٍ وَادْهَبُوا إِلَى عِبْدِي أَيُّوبَ، وَأَصْعِدُوا مُحْرَقَةً لِأَجْلِ أَنْفُسِكُمْ، وَعَبْدِي أَيُّوبُ يُصَلِّي مِنْ أَجْلِكُمْ، لِأَنِّي أَرْفَعُ وَجْهَهُ لِنَلِّأَ أَصْنَعُ مَعَكُمْ حَسَبَ حَمَاقَتِكُمْ».

هذه هى معاملات الله نحو قديسيه.. ومختاريه فى كل الأجيال. لقد بدا أن أيوب يجترئ فى الكلام، وظنوه يتجاوز الحدود فى الحديث. ولكن تقواه وصلته العميقة مع الله كانت تشفع له فلم يحسب الرب عليه ما تقوه به. بل عاتبه وكشف له المستورات ورده إلى اتضاعه. وقال للرب: «بِسْمِعِ الأُدُنِ قَدْ سَمِعْتُ عَنكَ، وَالآنَ رَأَيْتُكَ عَيْنِي. لِذَلِكَ أَرْفُضُ وَأَنْدُمُ فِي التُّرَابِ وَالرَّمَادِ» (أيو ٤٢ : ٥ ، ٦).

هذه الدالة التى للقديسين قد ظهرت بأجلى بيان فى نهاية سفر أيوب. ولولا صلاة أيوب من أجل أصحابه لنزل بهم غضب الله. فعلاً طلبة البار تقتدر كثيراً فى فعلها.



## إنجيل المرأة الخاطئة

رُبَّ سائل: ألم يوجد فى المدينة خطاة غير هذه المرأة؟ لأن الكتاب يقول: «امرأة فى المدينة كانت خاطئة» (لو ٧ : ٣٦ - ٥٠).

الواقع أن الخطاة فى تلك المدينة أو غيرها من المدن لا يمكن حصرهم لأنه «أغلق على الكل تحت الخطية... أنه ليس باراً ولا واحداً» (غل ٣ : ٢٢، رو ٣ : ١٠). بل أن العكس هو الصحيح إن وجد أبرار فى مدينة فهم الأقلية المعدودة.

ولكن من حرك قلب هذه المرأة الخاطئة للتوبة؟ والجواب: إن التحريض على التوبة وتحريك الضمير لتترك حياة الخطية هو من الله «الذي يريد أن جميع الناس يخلصون» (١تى ٢ : ٤)، وهو مخلص البشر.

إذن هل اختار الرب هذه المرأة ليخصها بهذه النعمة إذ يحرك ضميرها ويثقله من جهة حياة النجاسة والفجور؟ وهل إليها وحدها بلغ هذا الصوت الإلهي؟ ولماذا؟

والواقع أن رسالة الله ودعوته للجميع بلا تمييز ولا تفریق. ولكننا نخلص إلى القول إن وراء هذه المرأة الخاطئة سر.. هو سر القبول، وسر الاستجابة.. إذ سمعت الصوت داخلها يحرك قلبها ويوخز ضميرها.. فلبت للحال صوت الداعي. واستجابت له بكل مشاعرها وتحركت لفورها بخضوع عملي لتلبى متطلبات الحركة الإلهية داخل القلب.

وكم من مرات لا تقع تحت حصر يصير هذا الصوت، ينادى فى قفار الأرض وجذب العالم المظلم «ثوبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات» (مت ٤ : ١٧). ويختلف الناس اختلافاً بيناً من جهة الاستجابة والتجاوب.

فمن سامع سريع الانفعال ثم فى لحظة يخبو الصوت ويتلاشى، ومن مستهتر لا يُعير الصوت التفاتاً، ومن غير مصدق ولا مؤمن بهذا الصوت إنما يعزوه إلى غير الله الموجود، ومن يائس لكثرة السقوط وارتداد الطرق المعوجة.

مئات بل ملايين السامعين والتمايز بين واحد وآخر شئ مهول حقاً. وبين الملايين الكثيرة يوجد من يلين قلبه عند سماع أول هاتف للخير وأول شعاع لفجر القيامة.. ومن هؤلاء كانت هذه المرأة الخاطئة، فلما سمعت جاءت إلى من ناداها. ولم تكن تجرؤ أن تنظر إلى عينه، فهو فاحص القلوب ومختبر الكلى. ولم تكن تستطيع أن تزيه وجهها وقد غطاه خزي الخطايا. كان الذى يحركها فى الداخل

شئ لا يُقاوم، وحينئذ إلى الحياة الأفضل كانت تُزكّيه هذه الشعلة البسيطة من نار الروح الذى بدأ يشتعل قليلاً قليلاً فى داخلها.

تُرى ماذا سيقول؟ بل ماذا عساها أن تقول؟

فإن قال وكشف ما هو مستور فى قبر هذا القلب المسكين.. فسوف يزلزل صوته السماء والأرض.. وأساسات المسكونة. فكم بالحرى قلب ملوث بالخطايا.

وإن نظر فتذوب الجبال وتُدخن، لأن السماء غير طاهرة قدام عينيه.. «وَأَلِي مَلَأْتِكْتِهِ يَنْسِبُ حَمَاقَةً» (أى ٤ : ١٨).

فمن الأجدر أن تتكلم هى، وماذا عساها أن تقول إن استجمعت شجاعته وحزمت كل ما تبقى لها من قوة بددتها الخطايا.. من أين تجد كلاماً تضعه فى شفيتها.. من يعطيها كلاماً كقول هوشع «خُذُوا مَعَكُمْ كَلَامًا وَارْجِعُوا إِلَى الرَّبِّ» (١٤ : ٢). تُرى هل تحتاج إلى كلمات داود أو صلوات منسى التائب؟ وهل تحتاج إلى من يعمل فى فكرها لترتيب الكلام، حتى تجد نعمة لدى القدير؟ إن ملايين الكلمات لا تكفى ولا تقى!

لذا جاءت من ورائه.. وهل تحسب أنه له وراء وقدام؟ لأجل تجسده إذ صار إنساناً، صار هكذا، غير المرئى صار مرئياً وغير الزمنى صار تحت الزمن. هكذا عرفته إذ صار قريباً من الخطاة بل محب للعشارين والخطاة.

فلما وقعت عند قدميه.. وصارت إلى التراب فى المذلة والاتضاع.. انفجرت ينابيع الماء من الداخل كقول الرب للسامرية، وهى أيضاً المرأة التى تمتعت بالغفران قبل غيرها. لذلك لما عجزت عن الكلام باللسان تكلمت العينان بالدموع.

**جاءت من ورائه باكية:**

للمدوع فعل عجيب حقاً لدى أصحاب القلوب الطيبة وأصحاب المشاعر الرقيقة. فكم بالحرى تكون أمام مخلصنا ينبوع الرحمة والحنان؟ فهى تستدر عطفه الإلهى كما هو مكتوب: «كَمَا يَتَرَأْفُ الْأَبُّ عَلَى الْبَنِينَ يَتَرَأْفُ الرَّبُّ عَلَى خَائِفِيهِ»، لقد قال الرب فى سفر النشيد: «حَوْلِي عَنِّي عَيْنَيْكَ فَإِنَّهُمَا قَدْ غَلَبَتَانِي» (نش ٦ : ٥).

اقتربت الباكية من قدمى المخلص.. سبقتها دموعها تتساقط بغزارة، وبجرأة لمست قدميه، وهى تعلم فى نفسها مقدار نجاستها. شعرت لوقتها نفس شعور نازفة الدم.. وقف نزيه دمها.. زال المرض.. تددت النجاسة والشعور بالنجاسة. فهل تقف الظلمة إذا غشاها النور الإلهى؟ لقد لمست الخلاص،

لمست الحياة التي أظهرت، الحياة المتجسدة في شخص يسوع. حل في قلبها في الحال سلام الله لما مسّت قدمي الذي صالح الخطاة مع الآب. «لَا سَلَامَ، قَالَ الرَّبُّ لِلْأَشْرَارِ» (أش ٤٨ : ٢٢).

+ لم يحرك الرب قدميه أو يمنعهما.. ترك لها قدميه المزمعتين أن تتسمرا على الصليب بلا حراك لتدفع ثمن خطايا العالم كله.

لقد بخل سمعان الفريسي بالماء لغسل قدمي المخلص.. حسناً صنع دون أن يدري فقدمي المخلص ليستا بحاجة لغسل الماء كباقي البشر.. هو غاسل الأوزار والخطايا عن الأقدام كما فعل مع الرسل ومع كل أجيال الكنيسة.

+ كم الدموع لغسيل الرجلين من يقدر أن يصفه أو يقدره؟ هل يُكّال بمكيال أو يقدر بمقدار؟ ما قدره سمعان ولا المتكئين، بل حسبوه مياهاً تُسكب على الأرض. لكن قابل الخطاة ومخلص الأثمة هو الذي ثَمَّنَ الدموع وعظّمها.

**وَكَاثَتْ تُقْبَلُ قَدَمَيْهِ:**

تُرى من ذلك إلى ذلك؟ ومن علمك؟ القبلات للغم وللوجنتين. ولكنك ألقيت بنفسك على الأرض إذ حسبت نفسك خاطئة لا تستحقين القيام أمامه، فعكفت على تقبيل قدميه. فلما استنشقت رائحة الحياة الأبدية لم تكف عن فعل ذلك. سكبت الدمع فغسلت القدمين، و عوضاً عن المنشفة للتجفيف قدمت شعر رأسك، ثم سكبت طيبك المخبأ تحت إزارك، فامتلاً البيت من عبير التوبة الحقيقية، التي اشتمها الله قبل البشر.

يا للعجب! كل ما يعتيه للخطية وما بذلتيه للتلذذ والخلاعة.. استرددتته مضاعفاً أضعافاً أبدية.. فالدموع وعواطف الحب والقبلات التي ألهمت الجسد بالشهوات، و عطر الطيب وشعر الرأس التي أستخدمت للهلاك، عندما قدمتها ذبيحة حب حقيقي على مذبح قدمي يسوع.. نزعيت عنها كل شوائب الجسد و عار السلوك النجس، وكأنها ألقيت في أتون النار، فاحترقت الخطايا وخرجت العطايا كالذهب المصقى.

فيا جميع خطاة الأرض، تعالوا.. تعلموا اقتناء الخلاص، وتعجبوا كيف أن المرأة الخاطئة في المدينة صارت أيقونة المرأة التائبة في الكنيسة.

**سِمَعَانُ الْفَرِّيْسِيُّ**

عجبي من مسلك هذا الفريسي الأعمى، الذي نسي تطهير خطاياها، مبرراً ذاته وناظراً إلى المرأة الخاطئة.. وعجبي أننا كثيراً ما تصرفنا تصرفه وحكمنا حكمه وبررنا أنفسنا! قال الفريسي في نفسه، لم

يجسر أن يكلم الرب علانية فأمره مكشوف. ولكن المطلع على الخفايا وفاحص القلوب كلمه علانية  
مجيئاً على أفكاره لأجل منفعتنا وتعليمنا.

فإن كنا نصدر الأحكام على الآخرين وندينهم، فنحن بالأولى يليق بنا أن نحكم على أنفسنا  
وندين أنفسنا. وإن افكرنا بأننا مدينون بالقليل بينما غيرنا مدينون بالكثير، فقد أخطأنا إذ لم نحسب  
حساب حب الآخرين الكبير.

وإن كنا عجزنا عن أن نوفى الدين الذى علينا فلنسرع بالتوبة. وبدل المتكأ العالى فلنلق بأنفسنا  
عند قدمى يسوع القادر أن يسد الديون عنا. ولنبك بحرقه قلب ونبل قدميه بدموعنا ونقبّل قدميه اللتان  
أعتقتانا من طريق الضلالة..

كفى دينونة للآخرين.. وكفى حكم على الناس.

+ أما قول الرب كله فكان فى صف المرأة المبررة التائبة. فالمسيح دائماً فى صف الراجعين  
إليه، يدفع عنهم كلام الناس وأحكام الناس ودينونة الناس.

طوباك أيتها المرأة حين سمعت صوت الرب إلهك أنك أحببت كثيراً.. طوبى للدموع التى طهرت  
عينيك وقبلايك التى قدست شفتيك.. ومبارك هو طيبك الذى استمد معناه من طيب الروح القدس،  
المنبثق من الآب، الحال على رأس المسيح ومنسكب على القدمين.

طوباك لما سمعت صوت الرب مغفورة لك خطاياك. لقد أدركت الفرح الأبدى، إذ محا الرب  
عناك صك خطاياك.. طوباك لما أظهرت للعالم كله، حاصلة على سلامه الإلهى وأرسلت تركزين بالتوبة  
والخلاص « إذهبي بسلام إيمانك قد خلصك ».





## الضمير المسيحى

الضمير فى الإنسان هو وازع الخير الذى يدفع الإنسان، أى إنسان، نحو الخير والرحمة والشفقة نحو الأصغر والأضعف، ويَحْفَظ الإنسان ويدفعه لعمل الخير نحو الغير. وهو فى نفس الوقت يبكت الإنسان حينما يرتكب المعاصى، أو يجنح نحو عمل الشر، ويوخزه لعله يسمع فيرجع عن فعله. فعمل الضمير فى الإنسان إيجابى نحو عمل الخير وسلبى نحو الشر. ورغم أن الخليقة فسدت بالخطية ودخول الموت من جراء المخالفة والانفصال عن الله مصدر الحياة والصلاح، إلا أن بقايا مجد الخليقة قبل الفساد كائن فى الإنسان كمثل ما تجد فى حطام أيقونة فائقة الجمال، حتى الأجزاء الصغيرة منها تحمل جمالاً وبهاء.

هكذا تجد الضمير فى الإنسان مهما تدنت حياته حتى أسفل المراحل، من حين إلى حين يومض بالنور فى أحلك الظلمات. فالقتلة والسارقون والزناة لا تخلو حياتهم من ومضات الضمير، رغم ما اقترفوه من فظائع بسبب تحجر القلب وطمس معالم الخير. فأنت تجد القاتل فى معاملة أطفاله الصغار شئ مختلف تماماً عن سيرته فى العنف الذى بلغ القتل. فلا تجده مع طفله إلا رحيماً شفوفاً حانياً عليه. فالضمير فى الإنسان لا يموت، وإن كان أعتى الخطاة والمجرمين يبدو أنهم أماتوا الضمير وأنهوا عليه. فلو خلد الإنسان إلى نفسه ولو إلى دقائق معدودة.. ورجع ناظراً إلى داخله لتحرك ضميره الذى يظن أنه مات.

فى بداية الحياة.. فى الطفولة وبساطتها وبراءتها، يكون صوت الضمير فى الإنسان واضحاً عالياً من جهة دافع الخير أو من جهة التحذير والتبكيث على فعل الشر. فإن وَعَى الإنسان هذا الهاتف الداخلى وانحاز إليه وأطاعه فإن صوت الضمير يقوى ويزيد. وعلى العكس إن أعطى الإنسان لصوت الضمير أذناً لا تسمع، فإن صوته ينخفض ويخبو يوماً بعد يوم.

صوت الضمير يحذر وينذر، ولكنه لا يجبر الإنسان على طاعته، وإن أسكته الإنسان بالعناد يسكت. قُل إنه صوت الله فى الإنسان لأن الله لا يشاء موت الخطاة ولا يسر بموت الإنسان فى خطيئته. ولأن الله جل اسمه، خلق الإنسان، على صورته وأعطاه فى داخله إرادة حرة فى الاختيار. لذلك فهذا الصوت الداخلى لا يُفقد الإنسان حرّيته. بل على العكس يصير نصوصاً للإنسان ليكون أفضل ويطلب الخير والصلاح.

## ماذا عن الضمير فى الإنسان المسيحى؟

فى الإيمان المسيحى، نعلم أن طبيعتنا التى فسدت وبلبت بالخطية فى الإنسان الأول آدم أبونا، جدها المسيح (آدم الثانى) وأقامها وخلقها خليفة جديدة. وهذا التجديد شمل كيان الإنسان بكل ملكاته وإمكانياته.. نفساً وجسداً وروحاً «إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ» (٢كو ٥ : ١٧).  
فُئِلَ إن الضمير الطبيعى تجدد بالروح القدس كخليفة جديدة مسنوداً بنعمة سماوية. فإن كانت حساسية الضمير وصحته تختلف من إنسان لآخر، فما يوافق عليه ضمير الإنسان ربما لا يسمح به ضمير آخر وهكذا.

لذلك نقول إن تقديس الضمير لدى الإنسان المسيحى أعطاه فطنة وبصيرة وحساسية روحية، تختلف تماماً وتعلو على ناموس الضمير الطبيعى. فالمقاييس والمعايير مختلفة جداً بين ما هو حسب الطبيعة وما هو حسب الروح. إذن الضمير المسيحى، وهو مؤازر بروح الله القدوس فإنه يسعى أن يوصل الإنسان أن يشهد للحق. ومعياره الذى يقيس عليه هو وصايا يسوع.

لذلك بمقدار سمو الوصايا المسيحية وعلوها على الناموس الطبيعى العامل فى الإنسان الطبيعى، هكذا يتعالى الضمير المسيحى الساعى إلى الكمال. الدارس لحياة الآباء مثلاً يقابل علواً شاهقاً لضمير صالح مرهف حساس يدعو إلى العجب والدهش.. قيل مثلاً إن أحد الآباء فى بريا الإسقيط كان يعمل فى الحصاد وإذ أراد أن يفرك سنبلة من سنابل القمح ليأكلها.. استأذن صاحب الحقل، فتعجب الرجل وقال: يا أبتَ الحقل كله بين يديك وتستأذنى؟ ثم يعلق كتاب البستان ويقول: إلى هذا الحد كان هذا الأب حريصاً مدققاً.

### تدريب الضمير:

قال القديس بولس الرسول، وهو يحتج أمام فليكس الوالى: «أَدْرَبُ نَفْسِي لِيَكُونَ لِي دَائِماً ضَمِيرٌ بِلاَ عَثْرَةٍ مِنْ نَحْوِ اللَّهِ وَالنَّاسِ» (أع ٢٤ : ١٦). فإن كان يقال إن التدريب حتى للحيوانات الأعاجم أخضع طبعمهم الوحشى فأنت ترى كم تدربت حتى الوحوش والأسود والنمور، وحتى الحيوانات البحرية والطيور.

فكم بالحرى إذا تدرّب الإنسان المسيحى لكى يكون له ضمير صالح بلا عثرة قدام الله والناس. بكل تأكيد قد أثمر جهاد الآباء فى الحصول على ضمير مقدس روحى حساس وصالح. وهذا دفع حياتهم إلى السموات العليا وهم بعد عائشون فى الجسد بيننا. فضربوا المثل فى الحياة والطهارة، والسلوك،

والكلام، والصمت، والمعاملات مع كل أطراف الناس. وكانت سيرتهم التى سطروها وعطروا العالم بها.. كان هذا الضمير المدرب والمسنود بروح الله هو خلف كل واعز لعمل الصلاح والخير.

ولكن كيف يدرّب الإنسان نفسه لأجل أن يكون له ضمير بلا عثرة؟ «إِنْ سَمِعْتُمْ صَوْتَهُ فَلَا تُنْسُوا قُلُوبَكُمْ» (عب ٤ : ٧).. أى الانصياع للطاعة وإخلاء الذات، والخضوع الفورى لصوت الضمير. + أحياناً ما يعاند الإنسان أو لا يعطى اهتماماً للصوت الداخلى. هنا التدريب يعنى الالتفات السريع لصوت المتكلم، وعدم التسويف فى الاستجابة.

+ التدريب على النقاط الإلهامات مهما كانت صغيرة، كمن يرهف السمع للهمس. وهكذا تتربى فى الإنسان حاسة التقاط صوت الروح وإلهاماته التى ينطق بها فى الضمير.

+ يتدرب الإنسان أن يخضع للتبكيّ دون تخفيف أو تهوين، ويستوفى حق الروح فى اللوم متى كان الإنسان ملوماً، ولا يلتمس الأعذار بل يخضع للتأديب ولا يبرر ذاته. يقول الآباء: «جيد للإنسان أن يأتى بالملامة على نفسه فى كل شئ».

+ بسبب الضمير الصالح الذى بلا عثرة قدام الله والناس، صار أمر إرضاء الله هدفاً لحياة الآباء.. فأرضوه واسترضوا وجهه، وحفظوا كلامه، وداموا فى حبه، وأخلصوا فى عبادته ولم يتهاونوا. جعلوا الرب أمامهم فى كل حين.. صار حاضراً معهم فى كل مكان وزمان.. طلبوا وجهه وطلبوا أن يسكنوا فى بيته ويتفرسوا فى هيكله.

أما من جهة الناس، فالضمير المسيحى قاد مسيرتهم فى سلوك روحى. فحسب طاقتهم سالموا جميع الناس. وصار قانونهم أنه «إِنْ كَانَ طَعَامٌ يُعْزِرُ أَخِي فَلَنْ أَكُلَ لَحْمًا إِلَى الْأَبَدِ (طول حياتى)» (١ كو ٨ : ١٣). وبحسب الضمير المسيحى قدموا بعضهم بعضاً فى الكرامة ورضوا بالمتكأ الأخير. وسعوا فى إثر الصلح والسلام مهما كلفهم الأمر. وحفظوا المحبة ولو خسروا كل شئ سواها.

وفعلاً صار الضمير المسيحى هو الدافع للسعى وهو الحارس من الهفوات، وهو الضامن للاستمرار بنعمة الروح القدس وفعله لبنيان ملكوت الله.

+ قال أحد الآباء: «إذا تحرك فيك فكر صالح فلا تتم قبل أن تكمله».

+ قيل عن أحد الآباء إنه فى وقت نياحته رأوا وجهه منيراً ، فسألوه. فأجاب: أنه من يوم دخوله الدير لم يدن أحداً، ولم يحكم على أحد، فهو ذاهب ليلتقى المسيح الذى قال: «وَلَا تَدِينُوا فَلَا تُدَانُوا» (لو ٦ : ٣٧). إلى هذا الحد كان هذا الأب يقظاً بضمير نقى نحو الجميع.. طوبى لأنقياء القلب.

## اسلكوا بالتدقيق:

الضمير هو حارس السلوك بالتدقيق فى حياة الإنسان المسيحى، بعيداً عن الدممة والوساوس والتشكك. فالتدقيق يشمل معانى كثيرة تدخل فى تفاصيل الحياة، مثل عدم الاستهتار بالأمر التى تبدو صغيرة «فَالْأَمِينُ فِي الْقَلِيلِ هُوَ أَيْضًا أَمِينٌ فِي الْكَثِيرِ، وَالظَّالِمُ فِي الْقَلِيلِ هُوَ بِالضَّرُورَةِ ظَالِمٌ فِي الْكَثِيرِ» (لو ١٦ : ١٠).

فما معنى ما قاله الرسول أن يكون له ضمير صالح من جهة الله والناس؟

أولاً: من جهة الله، يكون له ضمير يخاف الله، يرضى الله، يحفظ وصاياه، يعمل حسابه فى كل تصرف. وهذا ما عبر عنه القديس يوحنا بقوله: «لَأَنَّهُ إِنْ لَأَمَنَّا قُلُوبَنَا فَاللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ قُلُوبِنَا، وَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ» (يو ٣ : ٢٠).

+ فى مسألة أكل ما ذبح للأوثان تكلم القديس بولس إلى الإنسان الذى يقول إنه له ضمير قوى، أى لا يتشكك عندما يأكل عالماً أنه لا يوجد إله آخر فى العالم، فكان يشارك فى الأكل مما ذبح للأوثان غير عابئ بالآخرين الذين كانوا يحسبون ذلك كمشاركة فى عبادة الأوثان وكانوا يُعشرون..

هنا قال بولس الرسول: أنت لك ضمير قوى لا يتأذى، ولكن ما بالك وأخوك الذى ينظر إليك؟ وصحح الرسول بولس المفهوم الخاطئ لحرية الضمير حتى إن الإنسان المسيحى يكون فى استعداد أن يضحى من أجل الآخر «لَوْ كَانَ أَكَلَ اللَّحْمِ يُعْتَرِّ أَخِي مَا أَكَلْتُ لَحْمًا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِي». وهكذا أظهر بوضوح جمال الضمير المسيحى المستعد دائماً للبذل والتضحية بعيداً عن الأنانية وإرضاء الذات.

«أَقُولُ الصِّدْقَ فِي الْمَسِيحِ، لَا أَكْذِبُ، وَضَمِيرِي شَاهِدٌ لِي بِالرُّوحِ الْقُدْسِ إِنَّ لِي حُزْنَ عَظِيمًا وَوَجَعًا فِي قَلْبِي لَا يَنْقَطِعُ» (رو ٩ : ١، ٢). هكذا كتب القديس بولس الرسول عندما تكلم عن إحساسه الداخلى نحو خلاص بنى إسرائيل وقبولهم بالإيمان بالمسيح.

فقوله هذا الذى بلغ غاية السمو والغيرة نحو بنى جنسه، يسنده شهادة ضمير مؤازر بروح الله القدوس. إن الأمر ليس مجرد كلام أو شعارات، بل هو حق وصدق. وما أجمل وأجلّ هذا الأمر أن ما يضمرة الإنسان يتوافق تماماً ما يتكلم به. وهذا دليل ما بعده دليل على انحياز الكيان كله للحق فى السلوك بالحق والكلام بالحق.

وهذا هو صدق الحياة المسيحية التى لا تعرف التلؤن ولا المراوغة.

نهاية الأمر ممكن أن نقول إن الضمير المسيحى المؤازر والمسنود من الروح القدس، يصير فى الحياة العملية كرقيب على التصرفات، ولا سيما عندما يتدرب ويرتقى فى البصيرة الروحية والحساسية والتميز الذى سماه الآباء الإفراز وعلّوا قيمته على جميع الفضائل.

نقول إنه فى هذه الحالة يقف الضمير كحارس يقظ على كل حركات الإنسان، إن كان بالفعل أو بالقول، من جهة الله فى العبادة والخدمة وحفظ الوصايا الإلهية. أو من جهة الناس فى المعاملات وما يتطلبه الروح من جهة جميع الناس: الأحباء والأعداء، القريبين والبعيدين.. وكيف يجب أن ينضبط السلوك نحو كل أحد.

الحكم الروحى والنصيح الصادق هو الضمير المسيحى. وكأنه صوت الروح الذى يقول: «أَعْلَمُكَ وَأُرْشِدُكَ الطَّرِيقَ الَّتِي تَسْلُكُهَا. أَنْصَحُكَ. عَيْنِي عَلَيْكَ» (مز ٣٢ : ٨).

خلاصة الأمر نجد أن الضمير المسيحى المُجدد بالنعمة والمؤازر بالروح القدس، هو القاعدة الجوانية التى تخرج منها مخارج الحياة.. فيقال إن الإنسان نوى فى قلبه أو أضمر أن يعمل كذا وكذا. وهذا يسبق خروج الأعمال إلى حيز التنفيذ. لذلك يقال: الضمير الصالح كنية عن القلب الذى تكلم عنه الرب فى الإنجيل أن «الإنسانُ الصَّالِحُ مِنْ كَنْزِ قَلْبِهِ الصَّالِحِ يُخْرِجُ الصَّالِحَ... وَلَا شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ تُثْمِرُ ثَمَرًا رَدِيًّا» (لو ٦ : ٤٥، ٤٣) والعكس.

وهذا يجعل الضمير المسيحى كالجذور للشجرة، وهى عميقة مخفية فى الإنسان الباطن. وعلى هذا فإن صار تلف فى الثمار، أى فى الأفعال، فالعييب يكون قد أصاب الجذور قبل كل شئ. والتوبة الحقيقية هى إصلاح حال الجذور. يعزق حولها أى يتعمق ويضع السماد. وينقى الحجارة ويطرحها ويعطى الجذور مجالاً وفرصاً للنمو بلا عائق. ويسقيها بماء الدموع ويتعهد لها حتى تعود إلى حياتها الطبيعية بنعمة الله.

